

الفصل الثاني

كيف يدون المؤرخ التاريخ

نحدثنا فيما تقدم عن المذاهب التاريخية في كتابة التاريخ ونؤثر أن نتحدث هنا عن صفات المؤرخ وحسبنا أن نستشهد برأى أدولف تيير A. Thiers (١٧٩٧): (١٨٧٧) الذي كان كبار رجال الدولة في فرنسا كما كان من كبار مؤرخيها ابتداء حياته بالعمل في المحاماة بمدينة لكس ثم غادرها إلى باريس إذا اشتغل بالصحافة فأصدر ال « ناسونال » سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك بعامين ساهم مساهمة قوية في إعادة النظام الملكي وتولى الوزارة بل رئاسة الوزارة مرات كما انتخب للنيابة في البرلمان . وفي سنة ١٨٧٠ عارض بقوة في اعلان الحرب على ألمانيا وبعد الهزيمة اختير رئيسا للحكومة ثم رئيساً للجمهورية بانتخاب الجمعية القومية سنة ١٨٧١ ولقد اتصل اسمه بتحرير فرنسا . ولكن ذلك لم يمنع المالكين والمحافظين من أن يتآمروا لتهنيته عن الرئاسة فتركها في ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ . ومات تيير والنظام الجمهوري الذي وضع أسسه يستقر شيئاً فشيئاً ويقول « محمد مندور المحامي » إن رجلاً كهذا عرك الحياة العامة وبلى أسرارها يستطيع أن يفهم التاريخ ، فيقدر العوامل المختلفة التي تعمل في تكوينه كلا منها قدره الحق . ولقد ترك تيير كتابين كبيرين : أولهما عن « تاريخ الثورة الفرنسية » في عشرة أجزاء . وثانيهما عن « تاريخ القنصلية والإمبراطورية » في عشرين جزءاً . وفي كتابه الأخير

صفحات عميقة عن الصفات التي يجب أن تتوفر في المؤرخ ومن بينها ما يحمل بكل مواطن أن يتخذ منها حلية لروحه . وهاهي تلك الصفحات .

١ - العناية بالبحث : هاأنا أنتهى - بعد خمسة عشر عاماً أمضيتها في

العمل المتصل من تاريخ « القنصلية والامبراطورية » الذي ابتدأته عام ١٨٤٠ - ولم أترك سنة واحدة من هذه الخمس عشرة تمر دون أن أخصص كل وقتي لهذه المهمة الشاقة - وذلك مع استثناء تلك السنة (١٨٥١) التي قضت أحداث السياسة أن أعيشها خارج فرنسا (منفياً عند تولي نابليون الثالث) . وأنا أرى بأنه من الممكن أن نعمل بأسرع من ذلك ، ولكنني أحمل لرسالة التاريخ احتراماً بالغاً ، حتى إن خوفي من أن أقرر حقيقة غير ثابتة ليملؤني حزناً . ولهذا لا يقر لي قرار حتى أكتشف الدليل على صحة الواقعة التي يساورني فيها الشك فأبحث عنه حيث يمكن أن يكون ، ولا أقف حتى أجده أو أطمئن إلى أنه غير موجود ؛ وعندئذ أضع نفسي مضطراً موضع الحكم فأقضى بإيماني الداخلي مع رهبتي الدائمة من الخطأ . وذلك لأنني لأرى - حين ما يأخذ المرء نفسه بأن يقول للناس الحقائق عن حوادث التاريخ الكبيرة - أنه أكبر من أن ينكر تلك الحقائق لضعف ، أو يشوهها لهوى ؛ أو يفترضها لكسل ، أو أن يكذب بوعى أو غير وعى على جيله وعلى الأجيال اللاحقة . وتحت سلطان هذه الوخزات قرأت مرة ومرتين ؛ وعلقت يدي على الوثائق التي لا تحصى المودعة محفوظات الدولة ، الثلاثين ألف خطاب التي تؤولف مراسلات نابليون الخاصة ، ثم خطابات وزرائه التي لا تقل عنها عديداً ، وخطابات قواده وأركان حربه . بل رجال البرانس ثم معظم المذكورات المخطوطة التي تحتفظ بها الأسر في بيوتها .

ومن واجبي أن أقر بأنني قد لاقيت من جميع الحكومات - وقد مرت بي ثلاث منذ ابتدأت كتابتي - التسميات نفسها والكرام نفسه في مدى بالوثائق التي كنت في حاجة اليها - وحتى تحت حكم حفيد نابليون لم يجبروا دوني أسرار السياسة الامبراطورية كما لم تجبرها الجمهورية أو الملكية الدستورية وهكذا استطعت أن أصل لا الى تلك الحقيقة المصطنعة التي تخافها عادة الاجيال اللاحقة بل الحقيقة الحقة، حقيقة الوقائع ذاتها التي لا تجرها الا في وثائق الدولة وبخاصة في مراسلات كبار الرجال . وهكذا كنت أمضي أحيانا عاما كاملا في إعداد مجلد كسبته في شهرين . ولقد أَرْضَى هذا الجمهور الذي تفضل فعلق أهمية على نتائج أبحاثي .

٢ - بساطة العبارة : من الحق أن أقرر أنه قد استقرت في نفسي الى جوار هذا التخرج رغبة في أن أستقصى البحث عن الطريقة التي أخذ يتحرك تبعاً لها كل هؤلاء الرجال وهذا المال وهذه المواد في عصر كان من أكثر العصور الانسانية اضطراباً، فأسرار الادارة والمالية والحرب والديبلوماسية قد جذبتني اليها واستوقفتني وأسرتني . وقد اعتقدت أن هذا الجزء الفني من التاريخ يستحق عناية من النفوس الجدية مثلما يستحق الجانب الدراماتيكي سواء بسواء . وفي رأي أن المدح أو الذم اللذين نصيهما على حوادث التاريخ الكبيرة ليس الا خطبا عقيمة ، وذلك ما لم يستند الى عرض منطقي موضوعي واضح للطريقة التي تمت بها هذه الاحداث . فالتهايك محاسة أم عبور الأب مثلاً ، وتكديسك للالفاظ وثرثك للصخور هنا والجليد هناك لكي تحمل الغير على مشاركتك حماسك ليس في نظري

لا عبث أظمال بل مصدر ملل للقارىء فلا جد ولا جدوى فى إثارة
اعجاب حقيقى إلا بالعرض الدقيق الكامل للأشياء كما وقعت . كم من
الفراسخ عبرت خلال الجبال وكم من المدافع والذخائر والمؤن حملت
دون طرق معبدة الى المرتفعات الحارقة وسط المهاوى المفردة وهناك
لا تستطيع الحيوانات أن تصعد . وإنما يحتفظ الإنسان وحده بقوته .
وإرادته . هذا هو ما يجب أن نقوله بأبسط أسلوب مع الحرص على
التفصيلات الضرورية دون غيرها وذلك إذا أردنا أن نقص مغامرة
كعبور سان برنار مثلاً . وحين ينتهى القاص من عرض دقيق كامل
للقائع وتفلت من فمه عبارة إعجاب لا شك أنها ستذهب رأساً إلى
قلب القارىء . وذلك لأن الإعجاب كان قد تولد فى نفسه بالفعل ولم
تأت عبارة القاص إلا استجابة لذلك الإعجاب .

٣ - ملاحظة الحاضر : لا أعلم من نتائج الروح البشرية ما هو

أجل من شعر الملاحم ، ولكننى أحب أن يسلم معى القارىء أن هناك
عصراً أقدر على تذوق ذلك الشعر منها على خلقه . فما أظن أن
هو مير ، ودانت قد تذوقا على نحو أرهف مما يتذوقا فى عصرنا الحاضر
الذى يجمع إلى الدقة العلمية القدرة على الانفعال . وبالرغم من أن لدينا
الشعراء والمصورين الممتازين فإن عصرنا لم ينتج مثل ذلك الشعر الساذج
القوى الذى أنتجته فلورنسا فى القرن الثالث عشر ، أو الإغريق الفطرية

فالجماعات أعمارها كما للأفراد ، ولكل عمر مشاغله . ولقد نظرت دائما إلى التاريخ على أنه الشاغل الذي يلائم عصرنا بنوع خاص وإن لم يكن طبعاً الشاغل الوحيد . فنحن لم نفقد المقدرة على الاحساس بكبار الحوادث ، وفي عصرنا ما هو كفيفل بردها إلينا لو أنها كانت قد فقدت . ثم إننا قد اكتسبنا من التجارب ما يمكننا من تقديرها والقضاء فيها . وهذه الاعتبارات أسلمت نفسى فى ثقة منذ الحداثة للأبحاث التاريخية وأنا مطمئن إلى أنى أعمل ما يلائم طبيعة هذا العصر . لقد خصصت ثلاثين عاماً من حياتى لكتابة التاريخ وباستطاعتى أن أقول إننى لم أتخل عن فنى حتى نشئت فى غمار الحياة العامة ، وعند ما كنت أرى العروش ترنحها ، وسط المجتمعات المهتزة ، نغمات الخطباء الأقوياء أو تهددها صيحات الجماهير ، ثم أنى حين كنت أجد لحظة للتفكير ، كنت لأرى هذا الرجل الفانى أو ذاك ، بل تلك الوجوه الخالدة التى كانت تتحرك فى الأزمنة والأماكن كلها بأثينا أو روما أو فلورنسا كما يتحرك أولئك الذين يقف عليهم بصرى سواء بسواء . وكان فى ذلك ما يخفف من غضبى أو اضطرابى وذلك لأننى لم أؤخذ على غرة ، ولا رأيت أحداثاً يومية عابرة ، بل مشاهد خالدة أقامها الله عندما وضع الإنسان فى الهيئة الاجتماعية ووضع فى قلبه ما يحركه من شهوات كبيرة أو صغيرة حقيرة أو كريهة

والإنسان دائم الشبه بالإنسان . تثيره وتقوده القوازين العميقة
الحالدة فباستطاعتي أن أقول إن حياتي ذاتها قد كانت دراسة تاريخية
طويلة . وفيما عدا اللحظات العنيفة التي يذهلنا فيها العمل ويبتاعنا تيار
الحوادث الجارف حتى نعجز عن تبين شواطئه ... أستطيع أن أقول
إنني قد لاحظت دائماً ما يمر حولي . ووازنت بينه وبين ما حدث في
في غير زماننا لأميز فيه المتشابه والمختلف . وفي هذه المقارنة الطويلة
خير إعداد للنفس حين تريد كتابة ملحمة التاريخ . تلك الملحمة التي
لا يمكن أن يتصل لونها لأنها دقيقة الموضوع . وذلك لأن الرجل الحقيقي
الذي يسمى الإسكندر أو هانيبال أو قيصر أو شرلمان أو نابليون
له شعره الخاص كما للرجل الأسطوري الذي يسمى أخيل أو إنيوس
أو رولان أو رينو . شعره . وإن تميز الشعران

٤ - الذكاء في التاريخ : ملاحظة الرجال والحوادث ملاحظة
متصلة أو كما يقول المصورون ملاحظة الطبيعة لا تكفي . وإذا لابد
لمن يريد كتابة التاريخ من موهبة خاصة ... ولكن ما هي هذه الموهبة؟
أهي لطافة الحس أم الخيال أم ملكة النقد أم فن التأليف أم القدرة
على التصوير ؟ أجيب أن كل هذه المواهب مرغوب فيها . وأن أي
تاريخ تظهر فيه إحدى تلك الصفات النادرة يعد مؤلفاً جديراً بتقدير
المعاصرين والأجيال اللاحقة على السواء . وفي استطاعتي أن أقول إن

هناك طرقاً كثيرة لكتابة التاريخ . فقد نكتب على طريقة توسيديك
أو إكزنفون أو بوليب أو تيت ليف أو سالونت أو قيصر أو تاسيت
أو كومين أو جوشاردان أو ميكافيللي أو سان سيمون أو فردريك
الأكبر أو نابليون . وفي كل حالة يكون تاريخاً ممتازاً وإن اختلف
عن غيره . وأنا لا أسأل الله إلا أن أكون قد كتبته كأقل هؤلاء امتيازاً
لا كفل بذلك أنتى وفقت صنعاً . وأنت سأخلف بعدى ذكرى لحياتي
الفانية . ولكل من هؤلاء صفته الخاصة البارزة . فمنهم من يقص في
وفرة تشترك . ومنهم من يقص دون اطراد فيسير بوثب وقفزات
ولكنه يصور بتخطيطات غامرة وجوها لن تمحى من ذاكرة الرجال
ومنهم من هو أقل وفرة في القصص أو مهارة في التصوير ولكنّه أكثر
هدوءاً وأغزر حياء فينفذ ببصر لا يغيب عنه شيء إلى أعماق الحوادث
البشرية ويضيئها بنور خالد . « يفكر تيير هنا في تيت ليف وتاسيت
وجوشاردان » . وأياما تكون طريقتهم قاتية أكرر أنهم قد وفّوا
صنعاً . ولكن أليست هناك صفة تفضل ماعداها من صفات حتى
ليتميز المؤرخ الذي يملكها تميزاً حقيقياً ؟ ذلك ما أعتقد . وأسارع
فأقول إن هذه الصفة في نظري هي الذكاء .

وأنا أستعمل هذا اللفظ بمعناه الدارج وأطبقه على الموضوعات
المختلفة حتى يفهمني القاري . كثيراً ما نلاحظ عند الطفل أو العامل

أو رجل الدولة شيئاً لا نستطيع أن نسميه لطافة الحس . لأن البريق يعوزه ولكننا نسميه الذكاء . وذلك لأن من وهبه يدرك لفوره ما يلقي إليه ويرى الهمس ويسمعه . فيفهم إذا كان من رجال الدولة فهم الحوادث وأسبابها ونتائجها ، وحدث طبائع الأشخاص وميولهم وما تمليه تلك الطبائع والميول من سلوك حتى لا تراه يدهش لشيء أو يتعثر في شيء وإن أحزنه في الغالب كل شيء . وهذا هو الذكاء . وهذه الصفة البسيطة التي لا تسعى إلى البريق لن تلبث عند العمل أن تظهر أعظم جدوى من كافة الصفات فيما عدا العبقرية التي ليست في الحقيقة إلا الذكاء مضافاً إليه الاشراف والقوة والاتساع والسرعة .

وهذه الصفة ، مطبقة على حوادث التاريخ الكبرى ، هي الصفة الأساسية الواجب توفرها في المؤرخ . وهي إذا وجدت استتبعها خلفها كافة الصفات الأخرى ، وذلك بشرط أن ننضيف إلى الهبة الطبيعية تجربة الحياة العملية ، فنحن بهذه الصفة نستطيع أن نميز الحق من الباطل وألا نتخددع بالكاذب من مسلمات التاريخ التقليدية وضوضائه الخاوية ، بل نحكم ملكتنا الناقدة فدرك في دقة خصائص الأفراد والعصور ، ولانبالغ في شيء تعظيماً أو تحقيراً بل نعطي كل شخصية قسماتها الحقيقية ونتجى الطلاء الذي لا نعرف أشد منه خطراً على التاريخ . وبالجملة نصور الحقيقة تصويراً صادقا ، وندخل في أسرار الأشياء

ونفهم كيف سارت ونعين الغير على هذا الفهم . فالدبلوماسية والإدارة والحرب والبحرية نضعها كلها في متناول جمهرة النفوس وذلك لأننا نكون قد استطعنا أن ندركها كمثل قابل للفهم . وعند ما نصل إلى جمع كافة العناصر التي سنؤلف منها قصصنا الواسع يدلنا تسلسل الحوادث ذاته على الطريقة التي نستطيع أن نعرض بها ذلك القصص وذلك لأننا عند ما ندرك الروابط الخفية التي تجمع بين العناصر والأسباب التي جعلت بعضها يتولد عن بعض تتكشف لنا طريقة العرض بنفسها ، وتكون أجمل الطرق لأنها الطبيعية . وإذا لم يكن في تيار حياة الأمم جبال من الشلوج استطاع المؤرخ أن يمزج كل تلك العناصر مزجا تاما ، وأن يسلسلها في يسر وحيوية تاركا لسير الزمن تدفقه وقوته بل وجماله ، وذلك لأنه لن يجيد قسراً بحركاته عن جراحها الطبيعي ولن يغير شيئاً من تأنيه الموفق . وهو أخيراً سيتمتع بأهم واسمى شرط لازم للمؤرخ وهو العدل . وذلك لأنه لا شيء يقتل في النفس الأهواء مثل معرفة الطبائع البشرية . ولست أزعم أن هذه المعرفة تستقط عن النفس كل قسوة . ولو أن ذلك حدث لرأيت شرراً ولما كنا عندما نعرف الإنسانية ومواقف ضعفها وندر ما يسيطر عليها ما يقودها . نستطيع — مع حبنا للخير ومقتنا للشر — أن نكون أرفق بالإنسان الذي تسوقه إلى الشر آلاف من الدوافع البشرية . كما

نقدس ذلك الذى استطاع وسط المغريات الحقةرة وبالرغم منها
أن يحتفظ بقلبه مرتفعاً إلى مستوى الخير والجمال والعظمة»

المسلمون والتاريخ القديم

صحيح أن العرب و المسلمين لم يقفوا على الطريقة العلمية الحديثة
فى التنقيب عن الآثار كما أوضحنا قبلاً لأن هذه الطريقة وليدة العصر
الجديد - غير أنه قد قام من المسلمين الرحالة الآتى ذكرهم هنا :

- ١ - ياقوت الحموى وهو مؤلف القاموس الجغرافى التاريخى المشهور
«معجم البلدان» الذى وصف كل ما وقعت عليه عيناه فى رحلاته الثلاث فى
أرجاء العالم الإسلامى وما جاورها من الأقاليم . وضمنه كثيراً من
تراجم الناس فى أثناء ذكره للبلاد التى ولدوا فيها أو نسبوا إليها
- ٢ - المسعودى الذى ارتحل إلى بلاد فارس سنة ٩١٥ م ثم إلى
الهند والتبت وجزيرة سمرقند «سبلان» ثم عاد إلى الغرب فزار بلاد
الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ووصف جميع هذه البلاد
فى كتابه المشهور «مروج الذهب»